

الخوف من الإسلام (الإسلاموفوبيا) الأسباب والآثار

(*) د. جمال نور الدين إدريس

مُقدِّمة

إنّ ظاهرة الخوف من الإسلام في حقيقة الأمر جديدة قديمة، فقد جُوبِهَ الإسلام في بداية إطلالته، وطوال مسيرته القاصدة بهذا التحدي.

وظاهرة الخوف من الإسلام في مجملها ماهي إلا مواقف معارضة لمعتقدات المسلمين، وممارستهم لشعائرتهم التبعديّة، والتزامهم بها، ولكنّ إذا نظرنا نظرة فاحصة لأسباب تخوّف الغرب، وتوجّسه الشديد من الإسلام اليوم فإننا نردّه إلى أسباب منها:

- الدعاية المعادية للإسلام منذ أن بزغ فجره من قبل قوى الشرّ، فتارة تأتي من المشركين كما كان قديماً، وأهل الكتاب اليهود والنصارى، والمنافقين كما هو حادث الآن، وقد تنوّعت الوسائل والأساليب بعد أن تحرّشوا بالإسلام، وكانت محصلته أن تكون الوراثة للأصلح، وهو الإسلام، وقد تسبّب هذا في العداء والخوف الشديدين من الإسلام.

- كراهية الإسلام لأسباب تاريخية منها: الحروب الصليبية، ومراراتها، وعدم التعمّق في دراستها بروية وتجرد من قبل الغرب أدى إلى الخوف من الإسلام في نفوسهم.

- النظرة الدونية من قبل الغربيين للقرآن، وأهل الإسلام، حيث يصوِّرون المسلمين بأنهم أناس متحجّرون، جامدون، متخلّفون... وأنهم يستخدمون الإسلام لتحقيق مكاسب سياسية، وعسكرية... وقد ساهم في تأجيج هذه المزاعم اليهود الذين لعبوا دوراً خطيراً، وخبيثاً في تقديم صورة مشوهة عن الإسلام وذلك بسيطرتهم على الإعلام.

- صعود الإسلام، وزيادة معتنقيه في الغرب، وانحدار الحضارة الغربية، وانحطاطها في مجال الأخلاق والاقتصاد هذه العلاقة الجدلية أدت إلى حالة من الدُعر لدى الغربيين من الإسلام.

- الخلط بين بعض واقع المسلمين المعيش اليوم، والإسلام حيث نجد بعض المجتمعات الإسلامية تعيش في تخلف، وكبت، وقهر...، فعلى الرّغم من أن هذه

(*) أستاذ مشارك - الأمين العام للجنة البحوث الفقهية والإفتاء بالجامعة .

- الأخلاقيات مرتبطة بالممارسات التي ينتهجها ممّن يُحسبون على الإسلام، والإسلام منهم براء، إلا إنّ الغرب يعمّمها، ويلصقها بالإسلام كدين.
- من الأسباب التي يعليها الغرب اليوم كثيراً أحداث الحادي عشر من سبتمبر.. وغيرها من الأسباب.
 - وقد أدّت هذه الأسباب، وغيرها إلى آثار عميقة ضدّ الإسلام والمسلمين منها:
 - كراهية كلّ ما هو عربي ومسلم - محاولة تشويه صورة الإسلام والمسلمين - توسيع دائرة ما يسمّى الحرب على الإرهاب التي يحاولون إلصاقها بالإسلام والمسلمين... وغيرها من الآثار السلبية، ولكنّ بجانب هذه الآثار السالبة شاءت إرادة الله تعالى أن تُفضي هذه الحرب على الإسلام والمسلمين إلى آثار إيجابية لم تكن في حُسبان الذين قاموا بها منها: ازدياد وعي المسلمين بدينهم، وحرصهم على التمسك به - تزايد أعداد المسلمين في الغرب، وغيرها من الآثار الإيجابية
 - ولهذا تأتي هذه الدّراسة معالجة لهذه الأمور، وقد جعلتها على النحو التالي:
 - **مُقدّمة**
 - المبحث الأول: أسباب الخوف من الإسلام (وجعلته في مطالب).
 - المبحث الثاني: آثار الخوف من الإسلام، (وجعلته في مطالب).
 - **خاتمة:** وتعرضت فيه إلى أهمّ نتائج الدّراسة، بجانب بعض التوصيات.
 - قائمة لمصادر مراجع الدّراسة.
 - فهرست الموضوعات.

،،، وبالله التوفيق،،،

المبحث الأول

أسباب الخوف من الإسلام

المطلب الأوّل : الدّعاية المعادية للإسلام

من المعروف لدي الباحثين في الإعلام أنّ الدّعاية تعتبر من أخطر الأدوات والوسائل لترسيخ أيّ مفهوم من المفاهيم في قضيّة من القضايا ، وفي عالم اليوم صارت هذه الدّعاية ضدّ الإسلام معروفة أم غير معروفة متنوّعة المصدر ، وذلك لأنها حرب بين الخير والشرّ ، وتجمّع لقوى الباطل الذي يبيّئ سمومه مخوّفاً من الإسلام ، وتعدّدت المصادر وتنوّعت الأساليب والطّرق .. فتارة تخرج هذه الدّعاية

من أهل الكتاب وتُبنى على مغالطاتهم ولعلّ من أخطر الدعايات هي التي تنبع من بين المسلمين وتأتي من المنافقين^(١).. وكلُّ هذه الدعاوى المغرضة .. وغيرها الهدف منها معروفٌ ومفضوحٌ وهو التخويف من الإسلام حتّى لا يتمدّد التمدّد الطبيعي لأئنه دينُ الفطرة.

وبسبب كلِّ ذلك صارت هناك صورة نمطيّة مشوّهة للعرب والمسلمين في الموروث الغربي الأوروبي ، أضيفت إليها بعض الإضافات اليوم ... ومن هذا المخزون في العقليّة الغربيّة صور الصّحاري المُقفرة ، والقصور التي يعيش فيها الفساد ، والأسواق القذرة التي يزدحم فيها العرب والمسلمون الملتحون الكسالى غير المتمدّنين ... والجواري المستجلبات اللائي يُبعنَ في أسواق الرقيق. والخطير في الأمر أنّ بعض المؤلفات العلميّة (كالقواميس مثلاً)^(٢) لم تتخلص من هذا الهراء ضدّ العرب والمسلمين ، وعرض صورة مشوّهة لهم ... فيذكر أحد القواميس المعاني التالفة كمترادفات للفظ عربي : (متشرّد ، صايغ ، عاطل ، إنسان بلا هدف، متسكّع .. يُطاع رقاب .. والغريب في الأمر أنّ الطبعات القديمة لهذا القاموس كانت تضع مثل هذه المُترادفات السلبية بجوار كلمة "يهودي"، لكن تمّ حذفها من الطبعات الحديثة، بينما رفض ناشر هذا القاموس الأمريكي أن يفعل الشيء نفسه مع العرب والمسلمين!! وقد تلققت أجهزة الإعلام الغربيّة هذه العناصر المغروسة في أذهان الأوربيين عن العرب والمسلمين، ثمّ نفخت فيها من روحها، ونشرتها في كافة الأرجاء بحيث أصبحت عبارة: "أنا عربي مُسلم" مرادفة تماماً لعبارة: "أنا إرهابي"!!، أو عبارة: "أنا عربي"، مرادفة لعبارة: "أنا غد، وشرير، وزير نساء"!! . وتكاد صورة العرب، والمسلمين التي يُقدّمها الغربيّون في إعلامهم، ومناهجهم الدّراسيّة لا تخرج عن أنّهم أو غادّ، معنوهون، إرهابيون، وحكام ظالمون ، وشيوخ قبائل مُتخلفون، وشباب غني يجري وراء النساء ، وقتلة ... وأنّهم يريدون شراء أمريكا بأموالهم ... وأنّ لغتهم ليست لغة بالمعنى الحقيقي ، وإنّما هي عبارة عن رطانة وكلام غير مفهوم .. وأنّهم بدو متخلفون، ويؤمنون بالخرافات!!.

(١) أنظر: الدوائر الدّعائية المعادية للإسلام بين عهدين : للأستاذ: حسن علي العنيسي، ص (١٧)، وما بعدها، ط. المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة، سلسلة (لإسلاميات)، ١٩٨٨م.

(٢) راجع: قاموس: وبستر أون لاين "الأمريكي في طبعته الأخيرة ٢٠١٠م، وقاموس: "روجنس نيو ميلينيوم

أون لاين" المتوافر على الانترنت: w.w.w.ksa-teachers.com

ويصل تشويه صورة العرب والمسلمين أقصى درجاته في برامج الأطفال التي توحى بأنّ العرب والمسلمين قومٌ "أشرارٌ"، و "مغفلون ... ولم يحدث أن ظهر في هذه البرامج (بطل عربي) يُعجَبُ به الأطفال .. وإثما العربي بالضرورة وضيعٌ وحقيِرٌ وهمجيٌّ يأسر معبودي الأطفال في أفلام الكارتون ، ويهدّد بقتلهم! وتذكر دراسة أنه بسبب هذا الإلحاح الإعلامي على تشويه صورة العرب والمسلمين، فإنّ الأطفال الأمريكيّين عندما يفكرون في لفظ (عربي) فإنهم يربطونه بتعابير، ومعانٍ معينة مثل: "بتروول ، بنزين شيوخ ، طماعيين ، إرهابيين ، أوغاد، زير نساء...!!".

ووسط هذه الحملة المنظّمة التي تشوّه صورة العرب والمسلمين نسي هؤلاء أنّ العرب والمسلمين قدّموا إسهامات عديدة للحضارة الإنسانيّة ، فالعلماء العرب والمسلمين كانوا مصدر إلهام لمفكرين أوروبيّين مثل "دافنشي"، لقد ابتكر العرب والمسلمون علم الجبر، وفكرة الصفر ، وهناك كثير من الكلمات الإنجليزيّة والفرنسيّة أصلها عربي مثل الجبر والكيما ، والقهوة..

وفي مجال الفلك ، استخدم العرب الأسطرلاب ، للاستعانة به في الملاحة الجاذبيّة، ورسم خرائط النجوم ، والأجرام السّماويّة ، إضافة إلى فكرة مركز الجاذبيّة، وفي مجال الجغرافيا كان العرب هم الرّواد في مجال خطوط العرض والطول ... واخترع العرب السّاعة المائيّة، كما أنّ الأسلوب الحديث للمعمار في أوروبا استلهمه الأوروبيون من فنّ المعمار العربي والإسلامي، وفي مجال الزّراعة أدخل العرب زراعات البرتقال والتّمر وقصب السّكر والقطن .. وكانوا رواداً في مجال المشروعات المائيّة وأساليب الرّي ، كما طوّروا تعليم القانون والفكر الأدبي والعلمي والفلسفي .. وظلّ كتاب (النّفس والشفاء) في الطبّ لابن سينا يدرّس في جامعات أوروبا حتّى أوائل القرن التاسع عشر .. ومع كلّ هذه الجهود^(١) التي لا تُخطئها العين تشيع هذه الدوائر المعاديّة للإسلام هذه الثّرّهات والأباطيل .

ومن ذلك ما أدلى به كبار كُتاب الغرب (كفرانكين جراهام) الذي قال في تصريحات إعلاميّة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وصف فيها الإسلام بأنّه: (دين شرّير)^(٢) ، وما صرح به رجل الدين الصهيونسيّ الأشهر في أمريكا

(١) راجع قوله في: الثبوة والسياسة : لجريس هالسيل ص(٥٦)، وما بعدها، ط. الناشر للطباعة ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٩٠م.

(٢) من خلال برنامج: هانتي وكولمز Hannity and Colmess في قناة فوكس الإخباريّة Fox News من خلال برنامج حلقة الخامس من أغسطس ٢٠٠٣م.

بات روبرتسون) الذي وصف النبي ﷺ بأوصاف قبيحة منها أنه: (قاتلٌ سافكٌ للدماء...!!)^(١). ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾^(٢).

المطلب الثاني : كراهية الإسلام لأسباب تاريخية

تركزت ظاهرة " الإسلام فوبيا" على خلفية تاريخية متمثلة في ذلك الرُكّام من الانطباعات الخاطئة والتصورات والرؤى المشوّهة حول أبرز رسالات الله إلى أهل الأرض ، بل أكملها وأشملها، وأنمّها وأعمّها ، ولذا جعلها الله مهيمنة ووراثة للرسالات السابقة وخاتمة لها : ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾^(٣)، وقد انتشر الإسلام لعوامل الإقلاع التي فيه ، ثمّ ذاع وامتدّ بنشاط الفتح الإسلامي إلى أن وصل إلى أطراف غرب أوروبا ، وشمال البحر المتوسط ، وإلي أفريقيا ، والأندلس غرباً ، وإلى معظم قطاعات أوروبا الشرقية ، وآسيا الوسطى شرقاً ... فكان الإسلام بمثابة الرحمة لكثير منهم وفتحاً جديداً ... خلا أن البعض منهم نظر إلى الإسلام بشيء من الريبة والانفعالية والتوجس وسوء الظنّ، فاستعصموا على التجاوب مع حركة الفتح الإسلامي.. فأدى كلّ ذلك وغيره إلى ميلاد أفكار مشوّهة وانفعالية عن الإسلام .. ممّا خلق جواً مليئاً بالعداء، والخوف من الإسلام .

والحقيقة أنّ أوروبا لم تشعر على امتداد تاريخها الطويل بأية تحديات حضارية تقريباً سوى من جانب الإسلام خلال أربعة عهود بالتحديد ، بيد أنّه لم يكن ثمت ما يحمل على خصومة الإسلام ومعاداته من دوافع منطقية، أو مبررات موضوعية.. وكُلّ ذلك مرده إلى الجهل بالإسلام كرسالة إلهية ... حيث إنّ الجهل بالإسلام لم يتحّ فرصة للتلاقي والتفاهم والحوار ، بل شكّل هذا الجهل لدى غالبية الغربيين أنماطاً معرفية شوهاء ، وخيالات مكنوبة مشبّعة بروح الرقّض الأعمى للإسلام وحضارته .. حتّى بلغ ذلك الجهل في بعض الأحيان حدّ تصوير الأسباب

(١) سورة الكهف: الآية(٥).

(٢) سورة الكهف: الآية (٥) .

(٣) سورة الأحزاب: الآية(٤٠).

والهولنديين ... سيدنا محمداً ﷺ بأنه المسيح الدجال^(١).
والذي يبدو أنّ الغرب نظر، وينظر إلى الإسلام في إطار تلك الحقيقة التاريخية... وما زالت الكثير من أجياله في هذه الدائرة، دائرة الحساسية المفرطة والحقد الملتهب تجاه الإسلام المتسامح.. حقدٌ، وحرَجٌ، وحسدٌ حضاريٌّ في صدور قوى الظلام الديني والسياسي في أوروبا.. وقد نتج هذا عن ردة فعل الهزيمة والإحباط اللذين حلّا بجميع مؤسسات أوروبا في ذلك الوقت، وتحوّلت إلى ردة فعل في مرحلة متأخرة من التاريخ الأوروبي الوسيط، صورة حشدٍ من الجهود الهائلة استعداداً لما أسموه بـ (الخلاص)، خلاص أسبانيا بتدشين محاكم التفتيش، وتجديد روح وفكر الحروب الصليبية!

وغير خافٍ على كلِّ متحسس لأبعاد العلاقة التاريخية بين الغرب والإسلام.. أنّ هذه العلاقة خضعت لمؤثرات الوعي الديني على كلِّ الأصعدة الرسمية، والمجتمعية، ونجد حقبة الحروب الصليبية بأحداثها المروعة قد أزكت ذلك، وكشفت بوضوح وجلاءٍ عن زيف الوعي الغربي بالآخر الإسلامي إلى الدرجة التي جعلت لديه المسلمين والكفار سواءً بسواء، فكانت تلك الحروب بمثابة إرثٍ كريه أليم...!! لم تستطع الأجيال التالية أن تتعافى من تقيؤ عواقبه الوخيمة حتى يومنا هذا!! وما أحداث الحادي عشر من سبتمبر ومقولة بوش الابن (إنها حرب صليبية) بعيدة، فلقد ورث الشرق المسلم، والغرب النصراني كلاهما شعوراً دقيقاً بالصراع والترقب تجاه الآخر، بيد أنّ الغرب على وجه الحقيقة: لم يكن لديه من البراهين النظرية والأدلة العلمية ولا التاريخية على سلامة ذلك الموقف الظالم من الإسلام وأهله.

ولذلك وعلى طريقة المثل العربي (رمتني بدائها وانسلت)^(٢)، نجد في المجتمعات الغربية حالة من الخبث في إبداء عدم القدرة على تجاوز تاريخ دموي، هم في الحقيقة صانعوه ومدبروه، وهم في الوقت ذاته الذين ركزوه في الذاكرة الغربية، وغيرها على نحو معكوس.. يوحي بأننا نحن المسؤولين عن الحروب الصليبية؟! وحرب العراق، وأفغانستان.. وكُلِّ حربٍ تنشأ في العالم!!، وهذه السقطات المنهجية المشينة في قولبة الأحداث التاريخية، وتلك الإسقاطات

(١) أنظر: أوروبا والإسلام: لهشام جعيط نقلاً عن: الإسلام والغرب: لأبي بكر قادر - مجلة مستقبل العالم الإسلامي، مالطا العدد (٤) ص (١٢٨).

(٢) مجمع الأمثال: لأبي الفضل أحمد بن محمد النيسابوري الميداني، ١/٢٨٦، ط. دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٧٢ م، بتحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.

التضليلية التفسيرية التي انطبعت في الوجدان الغربي المغلوط ، فجعلتهم يعادون الإسلام تحت مبررات واهية، مازالت وسائل الإعلام الغربية إلى الآن تحاول تأصيلها في نفوس النشء الغربي، وضمن مناهجهم الدراسية...!!، ومن الأخطاء التاريخية التي وقع فيها الغرب أنه ينظر إلى الحركات الإسلامية والتحريرية على أنها شبكة من التنظيمات الإرهابية الخطرة التي يغذيها الحقد على الحضارة^(١).

المطلب الثالث : سيطرة الإعلام الغربي، وضعف وقصور الإعلام العربي الإسلامي

تمت تكثيف دعائي وإعلامي غربي باتجاه النيل من الإسلام ، بزعم أنه مصدر المشكلات التي يواجهها العالم المعاصر ، وصارت آلة الإعلام الغربي تصور المسلمين بالتطرف الفكري أو الغلو الديني ... وما قد يستتبع ذلك من أحداث عنف هنا وهناك، الأمر الذي حداً بالمؤسسة الغربية إلى تحبيذ إصدار أحكام قطعية بحق الإسلام والمسلمين، وبصورة تتناقض مع المعطيات النظرية والعملية لكل من الواقع والتاريخ .

وهذه الصورة النمطية المشوهة للإسلام في الغرب سببها سيطرة، ونفوذ اللوبي اليهودي على الإعلام في أوروبا لأنه يملك ملكية مباشرة ووسائل الإعلام الغربية، أو يحرص على تعيين عناصر موالية للصهيونية في المناصب المهمة فيها، ويستقطب الإعلاميين من غير اليهود لمانصرة قضاياهم ، ولا يتردد في الضغط بشئى الوسائل على الكتاب والصحفيين المهتمين بأحداث الشرق الأوسط ولا سيما من يبدي منهم ميلاً لمساندة العرب، أو الاعتراض على الممارسات الصهيونية ، وهو يبذل قصارى جهده في إغراق وسائل الإعلام بالمعلومات التي في صالح إسرائيل عن الصراع العربي الإسرائيلي، ويستخدم في براعة سلاح الإعلام للضغط على وسائل الإعلام التي لا تخضع لسيطرة المنظمات اليهودية، وإذا أردنا أن نستعرض نماذج لما يقوم به اليهود وفق هذه الأساليب للتمكين لنفوذهم في وسائل الإعلام في الغرب لطل بنا الحديث ، ولكن يكفي أن نشير إلى بعض النماذج للدلالة على علاقة المنظمات اليهودية بالصورة النمطية المسيئة للإسلام والعرب في الإعلام الغربي.

ففي مجال التملك اليهودي المباشر لوسائل الإعلام يبرز لنا اليهودي

(١) أنظر: الإسلام والغرب، الحاضر والمستقبل: لزكي الميلاد ، وتركي الربيعو، ص (٢٠) ، ط. دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٠م.

الأسترالي (روبرت مردوخ) أميرطور الإعلام في الغرب، كنموذج صارخ، فهو يمتلك أميرطورية إعلامية ضخمة تضم (١٥٠) وسيلة إعلامية في أربع قارات، ففي أمريكا يمتلك مردوخ صحيفتين يوميتين و (٢٠) مجلة أسبوعية، وعددًا من المحطات التلفزيونية ودور النشر، وفي بريطانيا يمتلك خمس صحف يومية، وعددًا من المجلات، وشبكة تلفزيونية عبر الأقمار الصناعية، كما يمتلك في أستراليا (١٠٠) صحيفة، وفي آسيا صحيفة يومية كبرى، وقد اشترى مردوخ عام ١٩٨٨ شركة (ترايفجل) الأمريكية التي تصدر مجلة: (دليل التلفزيون)، والتي توزع أكثر من (٢٠) مليون نسخة!!، ويمتلك مليونير يهودي آخر، هو: "صموئيل نيوهادس" (٣٠) صحيفة يومية، وست مجلات، وست محطات تلفزيونية، وأربع محطات إذاعية، و(٢٠) محطة تلفزيون (كيمبلي) في الولايات المتحدة، ويمتلك اليهودي (والتر أنبرج) عدة صحف يومية ومجلات واسعة الانتشار في أمريكا. ويكفي في مجال الصحافة البريطانية أن نعرف أن (مردوخ) يمتلك الآن صحيفة (التايمز) اللندنية وشقيقتها الصغرى (صنداي تايمز)، كما يمتلك ثلاث مجلات أخرى هي: (سن)، و (نيوز أف ذي ورلد)، و (ستي ماجازين)، وفي فرنسا يمتلك اليهودي (جيمس جولد سميث) مجلة (الأكسبريس) .. وللإهود تأثير في عدد من الصحف والمجلات الفرنسية الأخرى، ولهم مايزيد على (٣٦) مطبوعة يهودية.. وفي أمريكا يمتلك المليونير اليهودي " آرثر أو ش سولز وبرجر" وشريكه اليهودي الأصل " جوليوس أدلر" صحيفة: (نيويورك تايمز)، وتشغل منصب المدير العام بصحيفة (واشنطن) اليهودية " كاترين جراهام"، ويملكها اليهودي " أوجين ماير " كما أن مجلة (نيوزديك) الأسبوعية تتبع أملاك " ماير "، ويرأس تحريرها اليهودي " ليستر بيرنشتاين"، أما مجلة (تايم) فيملكها اليهودي " جون مائير" ويتوزع عدد من اليهود على جميع أقسامها^(١)..

أما عن الإعلام العربي ونفوذه في العالم فحدث ولا حرج!!، فهو فضلاً عن دوره الخجول في إبراز صوت المسلمين والعرب، وإبراز قضاياهم الحية فهو يتقاعس عن التصدي لحملات التشويه التي يتعرضون لها في وسائل الإعلام الغربية، ولعل ما ذكرناه آنفاً يبين حجم الاختلال الرهيب في التوازن الإعلامي بين

(١) راجع: الدراسة المتخصصة حول نفوذ اليهود الإعلامي في أوروبا: للدكتور/ ثابت عيد المحاضر في جامعة سويسرا نقلاً عن: الإسلاموفوبيا (لماذا يخاف الغرب من الإسلام؟!): للدكتور/ سعيد اللاوندي، ص(١٩١)، ط. نهضة مصر، الطبعة الثانية، ٢٠٠٧م.

الإعلام الإسلامي والإعلام الغربي^(١)، وإن شئت سمّه اليهودي، ولذا فإنّ الإعلام في بلاد المسلمين يعيش في تخلف، وخواء وذلك في إبرازه قضايا الأمة المصيرية، أمّا في سفايف الأمور: (كالدّف له صوت عالٍ، ولكنّه أجوف)

المطلب الرابع: التخلف الفكري والفقهي في ترتيب الأولويات

هنالك حالة من التخلف الفكري والفقهي، والتراجع الحضاري، والانحطاط التقني، والذبول القيمي، والاستبداد السياسي، وغير ذلك مما يعانيه المسلمون في واقع اليوم، ولا يخفى على المتأمل أنّ كثيراً من القضايا الكبرى التي مثلت نقاط تماس واختناق في واقع العمل الإسلامي المعاصر، والتي أدّى الاختلاف حولها إلى كثير من التهاجر والتدافع، ولم يكن مردّ الاختلاف فيها إلى تنازع حول الأصول العلميّة الضابطة لهذه القضايا بقدر ما كان تنازعا حول تحقيق المناط فيها، والتباساً في بعض الأمور العمليّة، التي يودّي خفاؤها، أو تراكم الغيب حولها إلى الاختلاف في توصيف هذه القضايا، ومن ثمّ في تكيفها، وترتيب الوسائل والمناهج اللازمة للتعامل معها.

كما لا يخفى أنّ جانباً من هذا الخلل يرجع إلى الخلط بين مواضع الإجماع ومجاري الاجتهاد، وعدم التميّز الدقيق بين ما يدخل في دائرة كلّ منها، من أفضيتنا المعاصرة، ممّا أدّى إلى الاضطراب والخلل في ترتيب الأولويات، والنموّ السرطاني للاهتمام ببعض القضايا الجزئية والتثريب على المخالف فيها بالهجر والتبديع ونحوه، بطريقة تنعدم معها كلّ فرصة للحوار أو المراجعة، في الوقت الذي تهمل أو تُهمش فيه بعض القضايا الأساسيّة التي تمثّل مرتكزات أساسيّة في الإسلام، والتي بدونها يضطرب المسار ويتخبّط السائر!!^(٢).

(١) أنظر: الدوائر الدعائية المعادية للإسلام بين عهدين: للأستاذ/ حسن على العنيسي ص (٤٩)، وما بعدها، مرجع سابق.

(٢) الثوابت والمتغيرات في مسيرة العمل الإسلامي المعاصر: للدكتور/ صلاح الصّاري ص (٣)، وما

كُلُّ ذلك أدى إلى نمطيّة الفكرة الإسلاميّة وانصبابها في قوالب – لا أقول – ذات وسائل وأهداف متباينة ، بل ذات غايات مختلفة ومتعارضة ! فبتنا نرى الإسلام الصوفي ، والإسلام الكهنوتي الرّسمي ... وهناك الإسلام السّياسي ... وهناك الإسلام السّني .. والإسلام الشّيوعي .. والإسلام الإخواني ... والإسلام الوهابي .. والإسلام التبليغي .. والإسلام الأفغاني الطّالباري ... وهناك الكثير من التّماذج والصّور غير المتجانسة ... التي لا يمكن أن تتكامل معها صورة واضحة في ذهن غربي عن الإسلام الذي جاء به نبيّنا محمّد صلي الله عليه وسلّم ، الأمر الذي تحصّل معه الحيّرة، ويثور التّوجّس إزاء فكّ هذا (اللّغز الإسلامي) ، ليس لدي الغربيين وحسب، وإثما لدى بعض العامّة من المسلمين أنفسهم^(١)، ثمّ إنّ انفعال بعض خطابات الإسلاميين قد خرج بالخطاب الحركي مجملاً عن صوابه وطوره وأهدافه إلى مجرد الاستهلاك في مواجهة قضايا الفساد والاستبداد السياسي، فبدأ المشهد الإسلامي مشحوناً بالتشنّج والتعصّب ... ومخلوطاً بظواهر الغلوّ والتطرّف .. التي تقع موقع الحذر والخوف والترقب من التّفسيّة الغربيّة ... بجانب كّلّ هذا نجد أنّ ثقافة الخوف والانكفاء حول الدّات التي تُيّمّمها بعض التيارات الإسلاميّة التي تتعامل مع الغرب بوصفة شراً مستطيّراً ، في كّلّ شيء. كّلّ ذلك حدّ يشكل كبير من التّواصل مع الآخر ، ومن ثمّ أنتج ثقافة الخوف المضاد^(٢) . والواقع أنّ تحاشي وخوف كثير من المسلمين من التّفاعل مع الآخر

بعدها ، الطبعة الثانية (بدون).

(١) . الخوف من الإسلام : لعطية الويشي ص (٣٥)، وما بعدها ، ط.دار نهضة مصر ، الطبعة الأولى : ٢٠٠٦م.

(٢) أنظر: تحديث العقل السّياسي الإسلامي : لمحمد رضا محرم، ص(١٢١)، ط.دار الفكر للدراسات والنشر ، القاهرة ، ١٩٩٨م.

الغربي، بمرجعيتهم الإسلامية الأصيلة قد أوجد مكاناً للانهمام النفسي في دواخلهم، الأمر الذي لم يزددهم إلا ضعفاً وتضعفاً واندثاراً ، لأنّ الإنسان عندما يفقد القدرة على التعاطي مع الآخرين سواء داخل النسق أو خارجه ، فإنة يفقد القدرة على فهم معطيات الصّراع والمتغيرات ... وبذلك يبدأ فقدان أوراقه، وتتساقط أفكاره، وينكشف وهنه فيرتمي في أحضان الغير مستسلماً استسلاماً مطلقاً ... وإذا فقدت الأمة أفرادها ومؤسساتها عندها لا تستطيع أن تقدم لهم عناصر القوة والبقاء^(١).

المبحث الثاني

آثار التخويف من الإسلام

المطلب الأول: الآثار السلبية

إن موجة الحملات المشنومة للتخويف من الإسلام قد أتت بآثار سلبية وهذا ما رمى إليه أعداء هذا الدين القاصد من المنصرين واليهود، ومن والاهم.. ومن هذه الآثار:

[١] كراهية العرب والمسلمين:

انتشرت حملة الكراهية والعداء ضدّ العرب والمسلمين، وتزايدت بصورة مخيفة بل وارتبطت بأعمال عنصرية لكلّ ما هو عربيّ إسلاميّ وخصوصاً بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م، وقد كثرت المواقع الالكترونية عبر الانترنت التي تدعو إلى كراهية العرب والمسلمين وقد انعكس ذلك على الطّلاب المسلمين في الجامعات الغربية حيث باتوا يعانون من نفور وكراهية وتوجّس من أغلب زملائهم الغربيين نتيجة لتأثير هذه الحملة المنظمة المشوّهة للعرب

(١) أنظر: التواصل مع الآخر .. تأصيل لمنهجية التعايش : لمرتضي معاش، مجلة النبأ ، بيروت - العدد (٤٧) - تموز ٢٠٠٠م .

والمسلمين الأمر الذي أدى إلى تكريس عزلتهم وتحديد فرص إنقاذهم على الآخر بشكل إيجابي مثمر^(١).

[٢] تشويه صورة الإسلام في نفوس المسلمين، وغير المسلمين:

وذلك بإثارة الشبهات حول أحكام الإسلام وتشريعاته وأنظمتها المختلفة، وإثارة الشبهات حول القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ودس الأحكام الفاسدة، وإغراء بعض ضعفاء النفوس والعقول من أبناء المسلمين باعتناقها على أنها تعاليم الإسلام ومفاهيمه، ثم محاربة الإسلام بها، واختلاق الأكاذيب والافتراءات على الإسلام، وتاريخ المسلمين، وتشويه غايات الفتح الإسلامي بالاستهزاء والسخرية، ووصف المتمسكين بها بالرجعية والتطرف والتعصب، والجمود، وتجنيد كل وسائل الإعلام الخبيثة لتحقيق هذه الأغراض^(٢)، وقد جرّ كل هذا بعض حكومات الضعف في عالمنا الإسلامي نحو الاصطدام بمؤسسات الصّحة الإسلاميّة وقمعها دون تمييز لإرضاء الغرب، ولإثبات مصداقيتها لدى مركز الهيمنة والحظوة بقدر أكبر من الدّعم الغربي لهذه الحكومات، حتى ولو كانت ظالمة مستبدة^(٣).

[٣] توسيع دائرة ما يسمّى بالحرب على الإرهاب:

وذلك من خلال تآكل خريطة الحريّات وتشويه قيمها بل وقتلها بزعم الدّفاع عنها، وإصدار القوانين الاستثنائية التي تنتهك حريات العرب والمسلمين بالتّجسس عليهم وإقحام خصوصياتهم القياديّة والثقافيّة. فضلاً عن التّضييق عليهم في الحدّ من هجرتهم إلى الغرب... وتوسيع قاعدة العضويّة لحلف الناتو، والاتحاد الأوروبي، ومنظمة التجارة العالميّة... وغيرها وذلك على حساب الحضور العربي والمسلم اللذين تقلّ فرص استيعابهم في هذه الكيانات لأنهم همّ المستهدفون بإنشائها^(٤).

المطلب الثاني: الآثار الإيجابية

لقد شاءت إرادة الله تعالى أن ينبّه المسلمين إلى ما يراد أن يحاك لهم من

(١) أنظر: الإسلاموفوبيا: للدكتور سعيد اللاوندي، ص (٢٠٤) وما بعدها، مرجع سابق.

(٢) أنظر: أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها (التبشير، الاستشراق، والاستعمار): لعبد الرحمن حسن حبيكة الميداني، ص (١٢٦)، ط. دار العلم، دمشق الطبعة الثانية، ١٩٨٠م.

(٣) أنظر: الخوف من الإسلام: لعطية الويشي، ص (١١٢)، مرجع سابق.

(٤) أنظر: المرجع السابق، ص (١١٢-١١٣).

خلال هذا الإفك الفكري: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾^(١) ، وهذه الخيرية تمثلت في بعض الآثار الإيجابية نذكر منها:

[١] ازدياد وعي المسلمين بدينهم وحرصهم على التمسك بشعائره:

بعد أن وجد المسلمون أنفسهم أمام هذا الابتلاء الذي لا مفر منه، وأمام هذه التحديات التي لا قبل لهم بها، لم يعد أمامهم إلا أن يتقبلوا هذا البلاء مع إيقانهم التام بأن الخير كل الخير فيما اختاره الله وقدره، وأن الله تعالى لا يبتلي أمة الإسلام بكل هذه المحن بغضاً لها، أو نعمة عليها، وإنما يبتليهم ليميز الخبيث من الطيب.

﴿ إِنَّ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذُ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ، وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾^(٢).

إنها عملية تنقية للصف المؤمن من شوائب النفاق والشرك، وعبادة الأهواء والشهوات، والركون إلى اللذات، وهي عملية ضرورية ومهمة في حياة كل أمة مستهدفة بالإبادة من قبل أعدائها، كما نرى اليوم، وقد جعلت كل هذه التحديات من حجم الحقد والكراهية الغربية المنظمة ضد المسلمين، والمسلمون أكثر وعياً وتنظيماً لصفوفهم، وقد أدركوا أن خروجهم من محنتهم الحالية ونهوضهم من عثرتهم مرهون بمدى ثقتهم في دينهم وعودتهم إلى ربهم، وقيامهم بحقوقه كلها عليهم، والتزامهم بمنهجه عقيدةً وشريعةً ونظاماً للحياة^(٣).

[٢] تزايد أعداد المسلمين في الغرب:

ازداد عدد المؤمنين بالإسلام من الغربيين بعد أن أثار (الإسلام فوبيا) مزيداً من فضول الغربيين لدراسة الإسلام، والوقوف على حقائقه بأنفسهم ومن مظاهره الأساسية والأصلية، فأدى ذلك إلى نفاذ نسخ القرآن المطبوعة والمترجمة، ونسخ من كتب إسلامية كثيرة، وأصبح هناك تعاطف كبير مع المسلمين، حتى إن مؤسسة

(١) سورة النور: الآية (١١).

(٢) سورة آل عمران: الآيتان (١٤٠ - ١٤١).

(٣) أنظر: الإسلام والتحدي الحضاري: للدكتور: حمدي والي، ص (٢٢١) وما بعدها، ط. شروق للنشر والتوزيع، مصر، المنصورة، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٧م.

نسائية تضم قرابة الـ (٥) آلاف سيدة أمريكية أعلنت تخصيص يوم ترتدي فيه عضواتها الحجاب الإسلامي كنوع من التضامن مع السيدات المسلمات المحجبات في أمريكا، وقد أفاد المسلمون كثيراً من هذا التعاطف الرمزي.

وقد ازدادت أعداد الدّاخلين في الإسلام بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، ووصلت أعداداً كبيرة جداً، وقد شرعت بعض الجامعات الأمريكية والمدارس في تنفيذ فكرة تدريس الدّين الإسلامي لتزليل أيّة تشوّهات والتباسات عالقة بالعقلية الغربية ولا سيما الأمريكية^(١).

خاتمة

إنّ ما أريد قوله في ختام هذه الدراسة: (الإسلاموفوبيا)، الأسباب والنتائج،، إنّ الصّراع بين الإسلام والغرب في وقتنا الحالي، صراعٌ بين الحقّ والباطل، وتبيّن من أحداث التاريخ ووقائعه أنّ دول الباطل تزول مهما سطع وارتفع نجمها، وأنّ العاقبة والنّصر لأهل الحقّ عباد الله المؤمنين الصّابرين.

فالغرب تنكبّ الطريق الوعر وانجرف عن جادة الصّواب، بابتعاده عن طريق الله، فجاءت ثقافته وحضارته مشوّهة مادّية جافة تخلو من الرّوح، والقيم وعاش الإنسان في أجوائها قلقاً مضطرباً، وقد حاول الغرب نقل هذه الحضارة إلى عالمنا العربي الإسلامي فواجه الرّفص والمقاومة لقد سقطت كلّ المسلمات الباطلة التي جاء النفوذ والفكر الغربي من خلال (الاستعمار، والتنصير، والتغريب، ورجاله..). على طرحها في أفق العروبة والإسلام، فتكتشف باطلهم، وعرف العرب والمسلمون أنّهم كانوا مضلّلين، وأنّ أولياء التّغريب كانوا غاشّين لأمتهم، لا يقولون لها الحقّ، ولا يدلّونها على طريق الخير، وبعد أنّ سقطت ورقة التوت، ولم يجدوا بديلاً كثّروا عن أنيابهم للإسلام كما كان في السّابق، خائفين من الإسلام ومخوّفين منه، وذلك بمزاعم وثرّهات انكشف زيفها فيما بعد. وتبيّن أنّ أغلبها مبنيٌّ على الفهم الرديء للإسلام، بل للكون والحياة والإنسان!!

أيعقل أنّ يكون ذلك هو ردّ الجميل والاعتبار التاريخي للإسلام بعد قرون الصّليبيات والاستعمار؟!، لماذا يشوّهون صورة الإسلام؟، وهم يدّعون أنّهم يؤمنون

(١) أنظر: الخوف من الإسلام : لعطيّة الويشي، ص (١١٤، ١١٥)، مرجع سابق.

بأنه دينٌ سماوي؟ لماذا يحاربونه ويظاهرون على أهله ومعتنقيه، ومناصريه؟! لماذا يبتئون الرعب في قلوب البشر منه.. ويزرعون الحساسيّة تجاهه؟! إنّ هذا الخوف والتخويف من الإسلام الذي يتمّ تسويقه الآن في العالم الغربي بأبواق الدّعاية اليهوديّة الغربيّة، ماهو - في واقع الأمر وبعيداً عن المزايدات - إلاّ أملٌ تتعلقُ عليه أمانى البشريّة الفاضلة.. التي تصطدم بالماديّات المتغوّلة فيحدث هذا الذي نراه!.. وإبني أتساءلُ لمصلحة من يمكن أن تلقى شحنات الكراهيّة والعداء هذه، وتحت تأثيرات دعائيّة وإعلاميّة موهومة، وتحت ضغوطات نفسيّة كاذبة، ودجليات مغرقة في النّفعية الحاقدة، والانتهازيّة الحاسدة وتجاه من؟! تجاه رسالة حضاريّة كم أمّدت البشريّة والإنسانيّة - وما زالت - بسرّ وجودها وبقيمة حياتها؟!، هل من مصلحة الغرب حقاً تشويه صورة الإسلام والتخويف منه؟! هل هذا ما أمر به المسيح عليه السلام؟!، وماذا يمكن أن يكون موقف المسيح عليه السلام لو شهد ما تشهد البشريّة اليوم على يد الذين يدعون أنّهم يسيرون بتعاليمه؟!، هل كان سيبارك ازراء سيدنا محمد ﷺ، والإساءة إليه، والهجوم عليه، وهو الذي قد بشر به؟!، ولكننا نقول بأنّ الذي عليه الغرب اليوم دين الكنيسة وليس دين المسيح عليه السلام، ولذلك ينبغي ألا يكون الغرب مُرادفاً لرسالة المسيح عليه السلام في وعينا الحضاري.

ومع كلّ ذلك لا ينبغي أن نحكم على الغرب كلّهُ من خلال هذا الواقع الكئيب، فقد برهنت الأحداث بأنّ هناك عقليّاتٍ محترمة من الغربيّين، تؤمن بمبادئ الإسلام داخل النسيج الغربي، وتقرُّ بمبدأ التّعاشيش الإنساني، وفضل الحضارة الإسلاميّة العربيّة على الإنسانيّة جمعاء فهناك: "جورج جالوي" و"بول فندلي" و"أنا ماري شيمل".

توصيات الدراسة:

- [١] عدم التّفريط - ونحن نجابه ظاهرة الإسلاموفوبيا - في ثوابتنا العقديّة التي أكدّ القرآن والسُنّة النبويّة عليهما، وعدم التّرخيص في أمر معلوم من دين الله بالضرّورة، بدعوى التبرير والتّذرع بتهيئة أجواء الحوار.
- [٢] نشر الدراسات الصّادقة من قِبَل الغربيّين عن فضل الإسلام والعرب على الحضارة الإنسانيّة، وإشاعتها بين النّاس.
- [٣] تدريس التاريخ الإسلامي من منطلق إسلامي، ووفق التفسير الإسلامي للتاريخ، وبذل الجهد لتطویر هذا المقرّر بما يُعزّز الانتماء، ويُعلي الهمم، ويُحرّض على تجاوز تحديات الحاضر والمستقبل.

[٤] أن توضح للأجيال مكانة العرب والمسلمين، فضلاً عن حماية وصيانة الأمة من العصبية الجاهلية، وتحقير الغير.

[٥] دراسة أحوال الغرب التنصيرية واليهودية، من خلال برامجهم الإعلامية، والدعائية، والاقتصادية، والثقافية...

وفي نهاية المطاف، لا يسعني إلا القول بأنّ هذا جهد المقل، مضيت به في هذه الدراسة مع قلة الزاد، وكثرة الواجبات، ابتغي منه الوقوف على الحقيقة في أهمّ القضايا الفكرية المعاصرة في عالمنا العربي والإسلامي، سائلاً المولى أصلاح